أنيس صايغ عن أنيس صايغ: رحلة نصف قرن في العمل الفلسطيني والعربي (1)

خمسون سنة من العمل من أجل تحرير فلسطين وأرض العرب كلها.. والغاء الكيان المغتصب وعودة الشعب المقتلع

والدي كان يرى في التدخين جناية يمارسها الإنسان ضد نفسه فيؤذي صحته وصحة الآخرين ويخسر أمواله

أنيس صايغ مفكر وكاتب فلسطيني معروف، تخرج من الجامعة الامريكية في بيروت وجامعة كامبريدج البريطانية، وعمل استاذا زائرا في الجامعة نفسها، وعميدا لمعهد الدراسات والبحوث العربية في القاهرة، وكان مدير مركز الابحاث الفلسطينية في بيروت، ورئيس تحرير مجلة «شؤون فلسطينية» و«اليوميات الفلسطينية»... وعمل في اكثر من موقع في الجامعة العربية، وقام بعدد من المبادرات الثقافية مثل اطلاق مشروع الموسوعة الفلسطينية.. واصدر اكثر من دراسة وكتاب منها «لبنان الطائفي»، و«نصف قرن من الاوهام»، و«بلدانية فلسطين المحتلة»، و«الهاشميون والثورة العربية»، و«الهاشميون وقضية فلسطين»، واخيرا مذكراته التي تنشر «القدس العربي» مقتطفات منها.

«القدس العربي»

لم يجد من يكتب عنه فكتب عن نفسه هذا ما قد يقوله بعض الساخرين وربما هم على حق.

لماذا يكتب عن إنسان مثلي؟ لقد سُخّرت الأقلام للكتابة عن العظماء والأبطال ومحققي المعجزات ونائلي الجوائز، في السياسة والحكم والثقافة والعلم والفن والأدب والاقتصاد والرياضة والمسابقات وجمع الثروات. وأنا، بالطبع، لست واحداً من هؤلاء.

لم أقطع بحر المانش سباحة ولم أهبط على سطح القمر ولا تسلقت قمة إفرست ولا فزت في ملاكمة أو مصارعة ولم أحصل على «أوسكار» أو «نوبل» أو «بولتزر» ولا أملك ثروة تغري الملايين ولا صوتاً يطرب الملايين، ولم أسطُ على حكم ولا مصرف.

لم أخرج في حياتي العملية التي تجاوزت الخمسين سنة عن دائرتين ضيقتين سجنت نفسي فيهما اهتماماً وتفكيراً، هواية وعملاً وبقدر ما حولّتهما إلى صومعة لا أغادرها، لا بالجسد ولا بالروح، أصبح العالم الواسع خارجها بحراً للظلمات غريباً ومجهولاً ومرفوضاً.

عالمي الصغير الذي لم أغادره منذ أن تأهلت للحياة العملية هو عالم القلم وعالم الوطن، أي عالم الثقافة وعالم التحرير، وقد اشتبك العالمان وتوحدا وأسقطا ثنائية الوسيلة والغاية، أو الأداة والهدف فكل منهما مطلب ومسعى في الوقت نفسه، ويستحق الجهد نفسه.

خمسون سنة ومسعاي تحرير فلسطين أولاً وأرض العرب كلها ثانياً، لإلغاء الكيان المغتصب وعودة الشعب المقتلع وتحرير الإنسان والأرض معاً وفي الوقت ذاته أمارس الصنعة الثقافية لتصبح المعرفة بعد التحرير ركناً أساسياً في بنيان فلسطين الغد فالثقافة تحرّر والتحرير يثقّف وهدفهما معاً غنى حضاري.

في هذا الإطار انحصرت سيرتي الفكرية ومسيرتي العملية في أداء مزدوج، بسيط ومحدد وضيق مارست فلسطينيتي (وهي فلسطينية عربية تذوب فيها القطرية) عبر القلم والبحث، بالمقالة والمجلة والكتاب والموسوعة، خارج ساحات السياسة وخنادق القتال، ولكن بملازمتها وموازاتها وملاصقتها ومارست ثقافتي التي تتجسد في الكتابات والمؤسسات على أرض الموضوعية والتجرد والمنطق والصدقية، انطلاقاً من وعي الواقع المحلي والمعاش وإدراكه، أرض المجابهة مع عدو شرس اغتصب فلسطين ويخطط لاغتصاب العالم العربي سيادة وخيرات وآمالاً وطموحات ومعنويات وكانت الثقافة، بالتالي، وليدة الألم القومي وعلاجه الشافي في آن.

هكذا ألخّص حياتي سيرة ومسيرة في عالم صغير رسمت حدوده منذ أواسط القرن الماضي لم أملّ منه على الرغم من قسوة الضربات وقوة العراقيل ووطأة محاولات الإحباط وتنسّكت فيه حتى أصبحت جزءاً منه لا أتنشق غير هوائه ولو كان راكداً ومطبقاً وأصبح العالم خارجه غريباً عني بقدر ما أنا غريب عنه وعن أهله.

لا أستغرب أن قليلين فقط يهمهم الاطلاع على سيرة هذه هي أيامها وصفاتها ومعالمها ولا بد لسيرة مثل هذه أن تتسم بالجمود والقتامة والركود في حال بعيد عن الحركة والتنوع والضوء واللون والبريق والجاذبية.

كاد الجانبان الوطني القومي والثقافي العلمي في حياتي العملية في خمسين سنة أن يصبحا في هذه الأيام من الأمور التي لا تدعو الإنسان إلى التوقف عندها والتأمل فيها. أصبح النضال رقماً مهملاً في المفاهيم السياسية المعاصرة، ننساه ونتناساه لأننا نخجل به ومنه، ونحن نقاد كالنعاج إلى حال العولمة والتنازل والصلح والاستسلام والواقعية الغبية ورأس المال المؤلّه وهو حال قزّم النضال وحرّم الجهاد وعهّر المثل والثوابت. ومن الجهة الأخرى، تدنى الكتاب والمجلة والموسوعة إلى أسلوب متخلّف في التعبير عن الرأي ونقل المعرفة وحل الكومبيوتر والإنترنت والقرص المدمج واللقاء المتلفز وغيرها من وسائط التواصل محل حبر المطابع ذي النكهة العطرة. وهكذا انزوى تراث المرء ورأسماله من العطاء الثقافي والنضالي وانكمشت سيرته كمثقف وطني أو كوطني مثقف ولم تعد هناك قيمة لتجربة في مجالات مثل هذه أصبحت رافداً تافهاً وإسهاماً فاشلاً وعطاء خائباً عند الكثيرين.

من هنا كان إحجامي طيلة عقد من الزمن عن تلبية نصائح واقتراحات من أصدقاء وقراء وزملاء بأن أكتب ذكرياتي ومذكراتي.

سقط هذا التمنع فجأة منذ أشهر استمعت إلى ابنة صديق، طفلة في حوالي العاشرة، تسأل والدها عمن يكون عمو أنيس وماذا عمل ويعمل وتلعثم الوالد ولم يعرف ماذا يجيب وأحال ابنته إليّ وسألت الفتاة: هل أنت دكتور؟ قلت: كلا. قالت: إذن معلم؟ هززت رأسي علامة النفي. مهندس؟ ضابط؟ تاجر؟ والتبس الأمر عليها لم تبقَ في قاموسها الناشئ مهن أخرى وأخذت ألاعبها وأمازحها حتى نسيت تساؤلها وتخلت عن حشريتها لكني لم أنسَ التساؤل وأخذ الموضوع يثير حشريتي أنا.

هكذا، ببساطة وعفوية، اكتشفت أني أجهل نفسي وببساطة وعفوية قررت أن أسجل حياتي فأعرّف الناس بي لعلي أتعرّف أنا على نفسي. لم أكن مجهولاً لدى الطفلة ووالدها فقط بل أنا مجهول أيضاً أمام نفسي وأنا بحاجة اليوم، وقد لامست الخامسة والسبعين من العمر، أن أستعرض حياتي أمام عينيّ أفكاري وأعمالي وعلاقاتي ومواقفي وصفاتي ومشاعري وأخطائي وتقصيراتي ونشأتي ومحيطي وأسرتي وصداقاتي وينابيع شخصيتي، حتى أتعرّف من أكون معرفة صادقة وأمينة، بلا رتوش ولا وسائل تجميل تزيل العيوب وتخفيها.

إذن فأنا أكتب لنفسي عن نفسي وقد يكذب المرء على الآخرين لكنه لا يكذب على نفسه وتتلازم الصراحة مع الصدق في حديث الذات فلا تشويه ولا تشويق ولا تلاعب.

في المنبت تربة خصبة تعهدها الوالدان فتعددت محاصيلها وتنوعت

كانت الساعة قد تجاوزت السادسة من مساء ذلك اليوم الخريفي، الثالث من تشرين الثاني (نوفمبر) وبدأت حرارة الشمس تخف تدريجياً، والنسيم المنعش الذي تبعث به البحيرة إلى شواطئها يداعب ما تبقى من وريقات على أشجار المنزل أمسك عبدالله بيد عفيفة، الحامل في شهرها التاسع، وسارا على الطريق العريض الذي يفصل بين حديقة منزلهما وبين الشاطئ، وكانت قد صرفت النهار كله في السرير ووقفا بعد دقائق لترتاح قليلاً وليراقبا منظر الطائرة البحرية الصغيرة وهي تهبط ببطء وتشق صفحة المياه وتدفع الأمواج يميناً ويساراً وما أن هدأ المحركان حتى اقترب منها زورقان يحمل أولهما ضباط الأمن، بينما ينقل ثانيهما الركاب الذين لا يزيد عددهم على الثمانية أو العشرة إلى الاستراحة في مبنى الليدو المجاور لمنزل العائلة، يقضون فيه ساعات، ثم ينقلهم الزورق من جديد إلى الطائرة لتتابع رحلتها إلى الشرق الأقصى، مروراً ببحيرة الحبانية في العراق.

اعتاد الزوجان على هذا المنظر مرتين في الأسبوع، في أوقات ثابتة وكان الكثيرون من أهل المدينة يخرجون إلى الشاطئ لمشاهدة الطائرة البريطانية الصغيرة في رحلاتها الروتينية بين بريطانيا وأجزاء من إمبراطوريتها الواسعة آنذاك، فتنقل البريد الجوي والركاب، ومعظمهم من موظفي الدولة المدنيين والعسكريين.

لم يطل المقام بالزوجين طويلاً طلبت عفيفة من عبدالله أن يعود بها إلى البيت أحست بالجنين يتحرك وكأنه يستأذن بالخروج إلى الحياة. وفي البيت أعدّ عبدالله حقيبة الأغراض التي ستحتاج لها زوجته في المستشفى، وأبلغ «المس فورد» التي كانت تقطن في الطبقة العليا من المنزل بأنه سيأخذ عفيفة إلى المستشفى القريب وحمل سائق مس فورد (مارون، اللبناني الأصل) سيدته والزوجين إلى المستشفى، إلى «الشقة الملكية» المعدة لكبار النزلاء، والتي تطل على المنزل من الجهة الجنوبية وهرع إلى الشقة رئيس الأطباء، الدكتور هربرت طورنس، الاسكتلندي الدائم الابتسام، وزوجته مديرة المستشفى التي قلما كانت تبتسم وجاءت معهما «الست ظريفة» رئيسة قسم التوليد.

خرجت «الست ظريفة» من غرفة المريضة إلى غرفة الاستقبال في الشقة لتقول للزوج المنتظر بلهفة إنه صبي يا قسيس إنه بخير فسألها و «عفيفة؟» أجابت «لا تخف إننا نعتني بها أصيبت بنزيف حاد لكن الله لن يتخلى عنها». وأغمض عبدالله عينيه وتمتم بصلاة قصيرة، كعادته عند سماع أخبار خطيرة، سارّة أو حزينة لا بد أنه صلّى شاكراً الله على عطيته الجديدة وطالباً المعافاة لزوجته.

ثم دخل الدكتور طورنس وقال: «طالما حذرتك يا قسيس أن حمل القسيسة هذه المرة ليس مرغوباً، وأن عملية الولادة قد لا تكون سهلة إن أم يوسف ضعيفة، وجسدها لا يتحمل كثيراً لكنكما رفضتما الإجهاض منذ أن نصحتكما بذلك بعد أن ظهرت علامات الحمل. قلتما إن ذلك مخالف للتعاليم لأنه قتل لنفس بشرية على أي حال، نرجو أن يتم الأمر بخير. سنعتني بالقسيسة وبصلواتك وصلوات «مس فورد» نرجو ألا تحدث مضاعفات خطيرة لكن عليك أن تعدني أن لا أطفال بعد اليوم». وتابع ضاحكاً: الله سبحانه وتعالى اكتفى بسبعة أيام في الأسبوع فلماذا لا تكتفي أنت والقسيسة بسبعة أبناء؟ ثم تابع «أو أنكما تريدان اثني عشر ابناً كالنبي يعقوب وكما رتب الله اثني عشر شهراً في السنة؟». وعلقت مس فورد: إذن سمّوا المولود الجديد بنيامين مثلما فعل يعقوب. إنه آخر العنقود أو، كما تقولون بالعربية، «مسك الختام».

وهكذا حمل الطفل اسم بنيامين في أيامه الثلاثة الأولى وقبل أن يعود القسيس بزوجته إلى المنزل، وقبل أن يكتب في سجل المستشفى المعلومات الضرورية الرسمية، قالت عفيفة: إني غير مرتاحة لاسم بنيامين اليهودي. إن أسماء أبنائنا عربية كلها فلماذا نخرج اليوم على هذه القاعدة؟ ليكن ابننا هذا أنيساً لنا في شيخوختنا

وهكذا سجل القسيس المعلومات التالية في استمارة المواليد في المستشفى:

المولود: أنيس
الوالد: عبدالله صايغ
الوالدة: عفيفة البتروني
تاريخ الولادة: الثلاثاء 1931/11/3

الأم

ولدت عفيفة البتروني في قرية البصة قرب الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط، إلى الشمال من عكا قاهرة نابوليون وعند أقدام تلة الناقورة التي تفصل بين جنوب لبنان وشمال فلسطين.

كان جريس البتروني تاجراً للعاديات اعتاد أن يجمع قطعاً أثرية وتماثيل وأدوات وتحفاً، حقيقية أو مزيفة، ويتنقل بين بلدته اللبنانية، البترون، ومدن يرتادها السياح والحجاج الأجانب فيبيعها لهم وكانت القدس أفضل مكان لعرض بضاعته، واعتاد أن يعرّج في الطريق على بلدة البصة ليرتاح من تعب السفر وليملأ حقائبه بالمزيد من هذه العاديات التي توافرت في البلدة وفي البلدات المجاورة باعتبارها محطات تجارية للفينيقيين منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة.

كان جريس ينزل في بيت خوري البصة الكاثوليكي حنا الخوري وتوطدت الصداقة بين التاجر اللبناني والخوري الفلسطيني الذي كانت إحدى بناته، مريم، قد التحقت بدير المخلّص في جنوب لبنان للدراسة ولدخول سلك الرهبنة. والتقى جريس ومريم أثناء زياراته للبصة والعطلات الصيفية لها وتكررت اللقاءات وأغرما ببعضهما بعضاً واتفقا على الزواج ووافق الخوري واستبدلت مريم ثوب الرهبنة الأسود بثوب العروس الأبيض وكانت عفيفة أولى ثمرات هذا الزواج. واستقر جريس في البصة واشترى أرضاً وبنى بيتاً من طبقات ثلاث وكان الأكبر في البلدة الصغيرة.

تعرّف جريس البتروني بحكم عمله وتنقله واختلاطه بالأجانب إلى مرسلة أميركية حملها حماسها الديني التبشيري إلى البلاد السورية وقررت أن تكرّس حياتها لتعليم الناشئة مستفيدة من ثروة هائلة ورثتها عن والدها وحملت اسماً طويلاً ماري مكسويل تنسي فورد، ومكسويل اسم أسرة أمها وتنسي اسم الولاية التي جاءت منها وبنت بيتاً في صفد وآخر في طبريا وأخذت تتجول في مناطق واسعة من شمال فلسطين وجنوب لبنان وحوران وأسست أكثر من ثلاثين مدرسة ومركزاً للصلاة والتبشير والعلاج الصحي.

انجذب جريس، الماروني، ومريم، الكاثوليكية، إلى المس فورد، وإلى دعوتها المسيحيين من الكاثوليك والموارنة والروم الأورثوذكس لاعتناق مذهبها الإنجيلي (المعروف عند العامة بالبروتستانتي) وكان من أولى نتائج اعتناقهما هذا المذهب التحول الذي يعتبره الكاثوليك والمارونة ضلالاً ويعتبره الإنجيليون اهتداء! أن أرسلا ابنتهما الكبرى، عفيفة، إلى مدرسة الأميركان في صيدا وكان المرسلون الإنجيليون الأميركيون قد أسسوا في صيدا مدرستين واحدة للإناث، وأخرى للذكور عرفت باسم مدرسة الفنون وكان لهما سمعة ممتازة، وأصبحتا من أفضل مدارس لبنان وسورية وشمال فلسطين في التعليم والتربية.

برزت عفيفة في المدرسة وكانت الأولى في صفها وحينما تخرجت قبيل نشوب الحرب العالمية الأولى كانت تتقن العربية والإنكليزية واللعب على الأرغن والترنيم إلى جانب الموضوعات الأخرى التي كانت المدرسة تعلمها لطالباتها مثلما تعدهنّ ليصبحن ستات بيوت كزوجات وأمهات.

وحينما مات جريس البتروني في البصة قررت أرملته أن تلتحق بالعمل التعليمي مع مس فورد في صفد وأخذت معها ابنتها عفيفة المتخرجة حديثاً لتعمل كمدرّسة في تلك المدينة الفلسطينية الشمالية لكن الحياة لم تمهلها طويلاً. ماتت مريم ولمّا تبلغ الخمسين من عمرها وحزنت عفيفة كثيراً، فقد تيتمت باكراً وكانت مس فورد على أهبة رحلة تفقدية لمدارسها ومراكزها المنتشرة في حوران وعرضت على عفيفة أن تذهب معها لتخفف من حزنها.

جاءت الاثنتان إلى قرية خربا (بفتح الخاء والراء)، القرية المسيحية الصغيرة في حوران التي كانت مس فورد قد أسست فيها مركزاً تبشيرياً ومدرسة ونزلتا عند قسيس القرية، أنطون حموي، حيث كان يقيم أيضاً شقيق زوجته، الشاب عبدالله صايغ، المتخرج حديثاً في مدرسة صيدا والمنخرط مع القسيس في التعليم والتبشير.

الأب

كان عبدالله الابن الوحيد ليوسف صايغ الابن الوحيد أيضاً لعبدالله زخور الكبّاش ومثلما كان جريس البتروني يتنقل بين البترون وفلسطين لبيع عادياته في الثمانينيات من القرن التاسع عشر، حتى استقر به المقام في البصة وصاهر البلدة واعتنق المذهب الانجيلي، كذلك كان عبدالله زخور الكبّاش يتنقل بين مسقط رأسه في حمص وجبل الدروز، جبل العرب حالياً، وحوران لبيع مجوهراته واستقر في قرية خربا، حيث أنجب ابنه يوسف وأصبح يوسف هذا يعرف باسم الصايغ، نسبة إلى مهنته التي ورثها عن أبيه. واتسعت أعمال يوسف وكذلك ثروته واشترى أراضي واسعة في البلدة وخراجها واشترى قطعاناً من الأغنام وتزوج وأنجب ابناً وحيداً، عبدالله، وأربع بنات وماتت زوجته وعبدالله لم يبلغ الثامنة من العمر وأظهر الابن ميلاً شديداً للعلم وحماساً أشد للإيمان الديني، للمذهب الإنجيلي وعندما أراد زوج شقيقته الكبرى، أنطون حموي، أن يبعث بابنته إلى المدرسة في صيدا لتواصل تعلمها عهد إلى عبدالله، الشاب الطريّ العود، أن يأخذها إلى المدرسة ففعل وهناك تعرّف إلى المدير الأمريكي للمدرسة، فدعاه لأن يلتحق بمدرسة الذكور ورحب عبدالله بالفكرة ورأى فيها تحقيقاً لحلم كبير، لكنه لم يكن يعرف كلمة واحدة في اللغة الإنكليزية التي كانت لغة التعليم في المدرسة فعيّن المدير له مدرساً خاصاً ولم تنته السنة الدراسية إلاّ وكان عبدالله الأول في صفه وبقي اسمه على لائحة الشرف في المدرسة في السنوات الأربع التي قضاها فيها وحينما تخرّج أهداه المدير ساعة جيب ذهبية نقش عليها اسم المدرسة وقد ظل يحتفظ بالساعة حتى وفاته بعد ستين سنة.

هكذا التقى عبدالله صايغ وعفيفة البتروني في قرية خربا قبل نهاية عام 1914 ولا شك في أن مس فورد عرابة اللقاء لم يفاجئها ولم يزعجها أن يطلب الشابان منها أن تبارك خطبتهما، ولا أن تبارك زواجهما الذي جرى في كنيسة خربا بعد أشهر قليلة، في النصف الأول من 1915. هذه هي ظروف تكوين أسرة عبدالله صايغ، التي أثمرت ثمانية بنين (مات ثانيهم في الشهر الثامن من عمره) في السنوات الست عشرة الأولى بعد الزواج يوسف (1916) وفؤاد (مات طفلاً 1918) وفؤاد (1919) وفايز (1922) وتوفيق (1923) وماري (1927) ومنير (1929) وأخيرا أنيس (1931) وتوزعت الولادات الثماني بين البلدات الثلاث التي أقامت فيها الأسرة في تلك الفترة خربا والبصة وطبرية.

صدفة

إن الصدف هي التي جمعت بين الوالدين فالتقيا وتحابا وتزوجا وأنشأ أسرتهما، حسب ما رويت في الصفحات السابقة. أما الوالدان، اللذان كانا يرويان كيف التقت حفيدة ابن البترون، البصاوية، مع حفيد ابن حمص، الحوراني، في رعاية سيدة من ولاية تنسي الأميركية، في ظروف وأحداث غاية في الغرابة، فإنهما كانا يؤمنان بحماس وصدق بأن الإرادة الإلهية هي التي أمرت بذلك وأن العناية السماوية هي التي حققت ذلك، وأنه لولا هذا القرار وهذا التدبير لما حصل ما حصل لما كنت الآن أسجل هذه الذكريات، بل لما كنت موجوداً على الإطلاق!

كان الوالدان مؤمنين إلى أبعد حدود الإيمان لا أبالغ إذا قلت إن الصفة الغالبة على حياتيهما، وإن القوة الكبرى المتحكمة في أعمالهما وقراراتهما وفهمهما وردات فعلهما أمام الأحداث والظروف إنما انطلقت من الإيمان الديني، ذلك الإيمان الديني وحده، بحيث لا يكون لغيره أي أثر في اتخاذ قرار أو تداعيات حدث مهما كان القرار أو الحدث مصيرياً أو بسيطاً. وأما ما كان يمليه عليهما الوحي الذي يشعران بأن الله يردّبه على صلواتهما فهو الجواب القاطع الذي لا مردّ له، والذي تزول أمامه أي مصلحة أو رغبة أو تصور أو اعتقاد أو اقتناع مسبق. «هكذا يريد الله» هو التعبير الذي كنا نسمعه منهما عشرات المرات كل يوم.

عالمي الصغير الذي لم أغادره منذ أن تأهلت للحياة العملية هو عالم القلم وعالم الوطن، أي عالم الثقافة وعالم التحرير، وقد اشتبك العالمان وتوحدا وأسقطا ثنائية الوسيلة والغاية، أو الأداة والهدف فكل منهما مطلب ومسعى في الوقت نفسه، ويستحق الجهد نفسه

لا أذكر أن خلافاً واحداً، أو سوء تفاهم، أو نفوراً قام مرة بين الوالدين في العشرين سنة تقريباً التي كنت خلالها شاهداً على حياتيهما المشتركة. لا أذكر دمعة واحدة نزلت مرة على خد الوالدة غضباً من فعل أو قول للوالد بحقها ولا أذكر عبسة واحدة على وجه الوالد كرد فعل لقول أو عمل من الوالدة، فالإيمان بالله هو الذي كان يمنع نشوب خلاف ما لأنه كان يلهمهما معاً التفاهم والقبول والصبر والاحتمال والتوافق.

عاش الوالدان سلسلة من الظروف القاسية التي تحملا آثارها السلبية برضى وحاولا حل إشكالاتها والتغلب عليها بعقل وحكمة خففا من قسوتها وأنتجا بدائل معقولة. خسر الوالد في خربا أرضه وبيته والمجوهرات التي تركها له والده وهاجرت الأسرة إلى البصة إبان الثورة السورية خالية الوفاض ونزحت الأسرة من فلسطين إلى لبنان في نيسان (أبريل) 1948 متخلية عن كل شيء، مثل ثلاثة أرباع المليون فلسطيني واضطرت الوالدة لبيع المنزل في البصة الذي خلّفه لها والدها لتسدد بثمنه أقساط ثلاثة من أبنائها في بيروت واستولت السلطات البريطانية على أرض للوالدة وحولّتها إلى مطار للقوات الجوية البريطانية وكان مرتّب الوالد، القسيس، زهيداً إلى حد لا يكاد يؤمّن الضروريات ومع هذا استطاع والوالدة أن يعلّما أبناءهما تعليماً ممتازاً في أفضل المعاهد والجامعات وانهارت صحة الوالدة منذ الثلاثينيات وعاشت آخر عشر سنوات طريحة الفراش. ومع هذا كله لم يفقدا أملاً ولم يتبرما بحال ولم يشكوا، بل كانا يريان في ما يحصل تجارب من الله يواجهانها بشجاعة وثبات وإيمان راسخ وفجع الوالد بوفاة الوالدة ، وعاش سنواته الخمس والعشرين الأخيرة بفراغ وحزن إضافة إلى فقدان فؤاد ثم توفيق وكان أولهما في الأربعين من العمر، ولم يبلغ ثانيهما الخمسين. كان عزاؤه أنهما سبقاه لعند الله. كانت آخر كلماته لي وهو على فراش الموت: لا تحزن عليّ يا أنيس إني ذاهب لعند عفيفة لقد اشتقت لها كثيراً.

أم قوية الشخصية

تجلّت قوة شخصية الوالدة في الثلث الأول من القرن الماضي، أي قبل أن يبدأ الوهن ثم المرض يدبّان في جسدها النحيل وهي فترة سابقة لمولدي لكني أعرف عنها الكثير مما كان الوالد والأشقاء والناس يروون من قصص عن قدرة الوالدة على تحمل مشاق الحياة التي جابهتها الأسرة في خربا وفي البصة قبل الانتقال إلى طبريا، من حيث خسارة الوالد لممتلكاته بفعل الاضطرابات السياسية والتهجير، أو من حيث اضطراره للتنقل المستمر بين مراكز حوران ولبنان وفلسطين للتعليم والوعظ طيلة السنوات الخمس عشرة الأولى من زواجهما، براتب ضئيل ومسؤوليات كبيرة، من جهة، وبتوالي ولادة الأبناء واحداً بعد الآخر وما يستتبعه من أعباء إضافية ومسؤوليات جديدة على الوالدة الأمر الذي أنهك قواها. وعلى الرغم من تلك المهام والظروف، كثيراً ما كانت الوالدة تضطر إلى مجابهة المشاكل والأوضاع السيئة وحدها، وحماية الأسرة والمنزل والممتلكات وصد الأطماع والاعتداءات ويروي شقيقي يوسف عشرات القصص التي كان شاهداً فيها على قدرة الوالدة على تحمل المصاعب وإيجاد الحلول وتنفيذ خطط الخلاص دون مساعدة من أحد في غياب الوالد بل إن قوة الشخصية بدأت قبل ذلك، وهي بعد مراهقة حينما أصرت على الدراسة ومتابعتها في مدرسة داخلية بعيدة عن قريتها في زمن لم تكن الفتيات يخرجن فيه من بيوتهن ولم يكن السفر بين البصة وصيدا سهلاً. لم تكن هناك طرق معبّدة. كانت الفتاة الصغيرة تركب بغلاً أو حصاناً يصعد بها إلى الجبل ولا تصل صيدا إلا بعد يوم أو يومين وتمر على عدد من القرى والبلدات وكانت قبيل الحرب العالمية الأولى تضطر إلى وضع غطاء على شعرها عندما تخرج من المنزل إلى المدرسة في صفد حيث عينت معلمة خوفاً من سماع ملاحظة تحرجها أو تجرحها، وظلت حريصة على وضع غطاء على شعرها في الكنيسة حتى وفاتها. ويروي يوسف أيضاً أن الوالدة كانت تطلب من الوالد أن يتنحّى جانباً ويترك لها معالجة بعض الأمور التي يمكن أن ننعتها بالمالية لأنها تراه خجولاً أو غير مكترث بشؤون المال فهي، مثلاً، التي أخذت يوسف من البصة إلى مدرسة صيدا لتطلب من إدارة المدرسة تخفيض القسط المطلوب وهي التي كانت تتولى بيع المحاصيل الزراعية والماشية في خربا لأن الوالد كان يهبها للجيران والأقارب دون مقابل مع أنه لم يكن يتقاضى عن عمله التبشيري مرتباً كافياً. وجدير بالذكر أن الوالد بقي يعمل شبه متطوع عدة سنوات بعد تخرجه قسيساً كما أنه عمل شبه متطوع أيضاً كقسيس زائر في السنوات الخمس والعشرين الأخيرة من حياته أي أنه قبل بتناول مرتب على عمله الروحي مدة خمس وعشرين سنة فقط من الستين سنة التي مارس خلالها هذه المهنة الرسولية. ولعلي لا أنهي الكلام عن شخصية الوالدين إلا بعد أن أروي ظروف خطبتهما فبعد أن خطبا في خربا ذهبت هي إلى البصة لتخبر ذويها، وكان شقيقها الوحيد قد هاجر إلى الولايات المتحدة فغضب أحد أقاربها وكان زميلاً لها في المدرسة في صيدا وكان يحبها ويريد الزواج منها وكتب إلى شقيقها المهاجر يطلب منه أن يتدخل لمنع الزواج، فالعريس كما كتب رجل عجوز بعين واحدة، ضعيف البنية، عاطل عن العمل، وبروتستانتي فبعث الشقيق يسأل عن صحة ذلك وكيف تقبل هي بالزواج من رجل هذه صفاته و عيوبه، فما كان منها إلا أن اكتفت بإرسال صورة لخطيبها مع هذه العبارة هذا هو عبدالله من حيث الشكل وهو ابن صائغ ثري وهو بروتستانتي مثلي مع وضع خط تحت كلمة مثلي. وكان رد شقيقها رسالة تهنئة وتمنيات بحياة سعيدة لها وللخطيب.

الشبه بين الوالد والوالدة في القدرة على التحمل قوي جداً لكنه امتاز عنها، بحكم كونه الرجل والزوج، بالوقوف بعناد شديد في وجه أفعال أو أقوال يرفضها، وخاصة حينما تتعلق بالشؤون الدينية والعقائد اللاهوتية ففي موازاة لطفه وحنانه ومرحه وانفتاحه على الناس، كان عنيفاً ربما أكثر من اللازم أحياناً مع المخطئين، سواء الذين يمارسون أفعالاً يراها سيئة وكان يسميها شريرة أو يفسّرون الأناجيل تفسيرات لا يقبل بها ويعتبرها انحرافات شيطانية. لا يجوز أن أعتبر الوالد متعصباً إزاء الآخرين، سواء من غير المسيحيين أو المسيحيين من غير الإنجيليين كان يحاورهم بطول بال وأناة وهدوء ومنطق ويحتفظ بصداقتهم مهما اختلف في الرأي معهم إلا أنه لم يكن يتسامح مع الذين يدعون أنهم إنجيليون ويصلون إلى أحكام تتناقض مع قناعاته هو، وقد ظهرت هذه الصفة فيه منذ أيامه الأولى في العمل التبشيري حسب ما كانت والدتي تخبرني، أي منذ أيام زواجهما الأولى فمثلاً كان الأنسب أن يلتحق بكلية اللاهوت الموجودة في بيروت لمواصلة دروسه لأنها أقرب إلى خرَبا والبصة وأوثق علاقة وأقل تكلفة إلا أنه اختار كلية اللاهوت في القدس، البعيدة نسبياً، لمجرد أنها عرفت أكثر من منافستها البيروتية تمسكاً بالتفاسير والقراءات والاجتهادات التقليدية وكانت تلتزم بالآراء المحافظة، في حين كانت كلية بيروت تقدمية في أحكامها وتأخذ التطورات في المفاهيم بعين الاعتبار. ومع الأيام ازداد تمسك الوالد بالرأي التقليدي حتى حينما خف قبول الناس من رجال الدين والعلمانيين بالتفسير المحافظ رفض، مثلاً، أن يجاري زملاءه القسس في لبس الياقة البيضاء حول العنق والروب الأسود أثناء خدمة العبادة احتفظ بلباسه العادي كأي رجل مدني في المجتمع وكثيراً ما ألححت عليه في الخمسينيات والستينيات حينما كان يتردد على السجون اللبنانية لإرشاد المساجين والصلاة لهم ومعهم أن يلبس تلك الياقة على قميص أسود حتى لا يمانع الحرس أو يتأخروا في إعطائه الإذن بالدخول كان يرفض أن يتميز عن أي إنسان آخر بالمظهر أو اللباس، وكذلك موقفه من الصليب لم يكن الصليب بالنسبة إليه أكثر من رمز لذلك لا يجوز المغالاة في تبجيله ولا التفنن في صنعه أو ترصيعه بالجواهر ولا التصنع في حمله وتكبير حجمه وكثيراً ما أثارت آراؤه هذه المشاكل مع زملائه. ففي الأربعينيات لام قسيس الناصرة الإنجليكاني لأنه في نهاية خدمة العبادة انحنى أمام الصليب وفي مطلع الخمسينيات انتقد رعية الكنيسة المشيخية في بيروت لأنهم رفعوا صليباً خشبياً كبيراً فوق المنبر وكان يسخر دوماً من الكنائس الإنجليكانية أي الأسقفية في بريطانيا لأنها تستعمل لنوافذها زجاجاً ملوناً. أذكر جيداً أن كنيسته في طبريا كانت فارغة تماماً إلا من المقاعد والمنبر والأرغن وصليب واحد صغير وكانت جدرانها عارية من أي صورة أو تمثال أو أيقونة أو زينة.

وكان رأيه في العذراء مريم يتفق مع الرأي الإنجيلي المحافظ، فهي مكرمة بين نساء البشر قاطبة بحكم كونها أم يسوع وبحكم بتوليتها واختيار الله لها من بين سائر البشر لكنه يرفض معالم التقديس والشفاعة وطقوس التبجيل المبالغ بها التي تنتشر بين الطوائف المسيحية الأخرى، كما أنه كان يرفض من جهة أخرى اتجاه بعض المدارس الإنجيلية

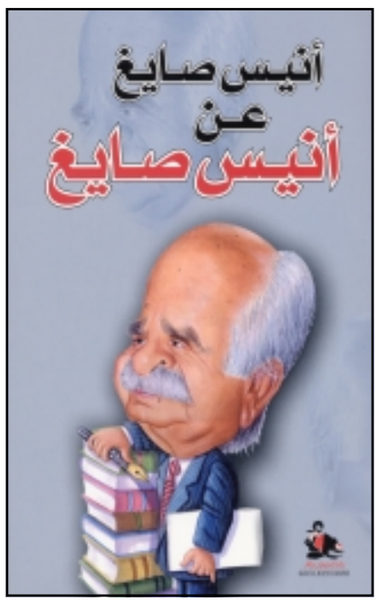

المعاصرة والتقدمية إلى إنكار ولادة المسيح الخارقة للطبيعة وكان يؤمن بالمعجزات المنسوبة للمسيح في العهد الجديد التي تنكرها بعض المدارس الإنجيلية المعاصرة وتفسرها تفسيراً مجازياً أما هو فكان يفسرها تفسيراً حرفياً كما وردت في الأناجيل، وكذلك نبوءات العهد القديم ومصطلحاته. أما المعجزات المعاصرة التي يقول بها مسيحيون كثيرون ويؤمنون بصحتها فهو يعارضها ويعتبرها أداة تستعملها الكنائس للسيطرة على الرعية وللكسب. الله وحده قادر على إجراء المعجزات عبر الإيمان والصلاة وليس من خلال وسائط بشرية أو طقوس أو أدوات أو ذخائر أو زيوت. أذكر أن فتاة من شمال فلسطين قالت إن العذراء ظهرت لها، وأخذ الناس يحجّون إلى بيتها ليتبركوا بها غير أن الوالد جاهر بموقف سلبي جعل الكثيرين يعارضون ويعترضون على كلامه ولم يخفف من حملته أن زوج شقيقة الفتاة كان صديقاً لنا وكان في تلك السنة في الأربعينيات قد أجّرنا منزله في الناصرة لقضاء فصل الصيف لتعذر مجيئنا إلى لبنان للاصطياف.

غضب الوالد الأشد كان ضد طائفة تعتبر نفسها مسيحية وإنجيلية ولا تعتبرها الكنائس الإنجيلية كذلك. إنها طائفة شهود يهوه صرف الوالد الثلاثين سنة الأخيرة من حياته يكتب ويعظ ويجادل ويحاور ضدها ولعله أول وأكثر من حمل على الجماعة في المشرق العربي منذ أواخر الأربعينيات وألّف أكثر من كتاب أصبح مرجعاً في الموضوع وقد بدأ حملته العنيفة هذه في قرية البصة، قبل النزوح إلى لبنان.

ولا بد لي أن أعترف هنا أن الوالد الهادئ عموماً كان حساساً جداً ويثور عند الحديث عن اضطراره لمغادرة منزله ورعيته مرتين في حياته، حوران وطبريا وبقيت مشاهد حرق كنيسته ومنزله في خَرَبا إبان أحداث مأثلة أمام عينيه دائماً ولعلنا نعذره إذا لم يستطع نسيان تلك الأحداث المؤسفة داخل المجتمع الواحد بين الطوائف المختلفة، حتى إنه ربما كان يبالغ في غضبه على مقترفي تلك الأحداث على الرغم من مرور عدة عقود على حصولها أما نقمته وثورته المستمرة على الصهيونيين فلا أظن أن أحداً يستغربها.

حرب ضد السجائر

والكلام عن غضب الوالد يقودني إلى الحديث عن عادة لم يقلع عنها ويذكرها كل من عرفه، وهي تأنيبه لكل من يراه يدخن السجائر. كان يرى في التدخين جنوناً وجناية يمارسها الإنسان ضد نفسه دون داع، فيؤذي صحته وصحة الآخرين ويخسر أمواله حتى إن بعض الأصدقاء كانوا يرمون السيجارة من بين أيديهم بسرعة إذا وجدوا أنفسهم أمامه حتى لا يقبض عليهم بال